الدرس العاشر: كتاب "عيار الشعر" لابن طباطبا

عرف القرن الرابع هجري اضطرابات سياسية واجتماعية غير مستقرة، إلا أنه عرف ازدهارا في العلوم بصفة عامة، والأدب خاصة، في ظل هذه الظروف ولد الناقد "ابن طباطبا" صاحب كتاب "عيار الشعر"، الذي عالج فيه العديد من القضايا التي شغلت على امتداد أربعة قرون.

1. نبذة عن الكاتب

هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن طباطبا العلوي، يرجع نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، ولد بأصبهان، يرجح مولده إلى القرن الثالث هجري، تتلمذ على الجاحظ وأبي هلال العسكري. توفي سنة 322ه، كان شاعرا وناقدا ملما بالأدب، شغوفا بالعلم.

من مؤلفاته:

أ. العروض
ب. سنام المعالي
ت. تهذيب الطبع

2. نبذة عن الكتاب

ألف ابن طباطبا كتابه "عيار الشعر"، بعد أن سأله أبو القاسم سعد بن عبد الرحمن عن علم الشعر وكيف يتوصل إلى نظمه، فرد عليه بهذا الكتاب. وقد سمى كتابه "عيار الشعر"، لأنه حدد مقاييس ومعايير تسهل على الشاعر عملية إبداع الشعر، بمنهج مختصر، فقسم كتابه قسمين: مقدمة، ومتن. المقدمة دارت حول الجانب النظري لعلم الشعر، وطرح فيه جملة من القضايا. أما المتن خصه للجانب التطبيقي.

3. أهم قضايا الكتاب

1. استهل ابن طباطبا كتابه بتعريف الشعر:"الشعر كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما خص به من النظم الذي إن عدل به عن جهته مجته الأسماع وفسد على الذوق. ونظمه معلوم محدود، فمن صح طبعه ذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن عن تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض، والحذق به، حتى تعتب معرفته المستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه"، فحدد ابن طباطبا الشعر على أنه من الناحية الشكلية يتميز عن النثر بالوزن.
2. كما اشترط لنظم الشعر توافر الأدوات الشعرية، لئلا يتكلف النظم وهذه الأدوات تقسم قسمين:
أ. أدوات فطرية: تتمثل في الطبع والذوق وحضورهما أساسي في الإبداع الشعري، حتى وإن كان الذوق مضطربا فهو يحتاج إلى تهذيب.
أ. أدوات مكتسبة: ومنها التوسع في علم اللغة، والبراعة في فهم الإعراب، والرواية لفنون الآداب، والمعرفة بأيام الناس وأنسابهم، ومناقبهم ومثالبهم...وغيرها.
3. تحدث عن قضية عيار الشعر، والعيار هو المكيال والمقياس الذي يقاس به الشعر، فرأى أن الشعر يقاس بـ:
أ. بقدرته على التأثير في نفوس المتلقين بالإيجاب أو السلب.
ب. أساسه العقل فما قبله الفهم فهو واق وما مجه الفهم فهو ناقص.
ت. حسن اختيار الألفاظ، عن طريق حلاوتها وبعدها عن الغريب، والغموض، والخطإ.

ث. اعتدال الوزن.

ج. كما تحدث عن قضية الإبداع ورأى أن الشاعر المجيد والمتقن لشعره هو الشاعر الذي يبتدع الأشعار ويخترع الجديد أثناء النظم. لذلك رأى أن القدماء قد سبقوا إلى كل معنى مخترع، وهنا يتضح موقفه من القديم.

ح. تطرق إلى كيفية بناء القصيدة، أن على الشاعر أن يمخض المعنى في ذهنه نثرا، ثم يعد ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن السلس عليه، وأن يراعي المقام، فيخاطب الملوك بما يستحقون، ولا يرفع العامة إلى درجة الملوك.

خ. وضع ابن طباطبا مراحل التي يتبعها الشاعر لبناء قصيدته وهي:

1. أن يكتب المعنى الذي يراد التعبير عنه نثرا.
2. أن يختار لذلك التعبير ألفاظا وقوافيا وأوزانا خاصة.
3. يرتب الشاعر الأبيات التي نظمها.
4. يعمل على تدقيق وتهذيب القصيدة.

4. الكتاب في ميزان النقد

1. فقد الكتاب إلى الترتيب والتسلسل فكان يتحدث عن المحاسن ثم ينتقل إلى المساوئ ثم يعود إلى المحاسن.
2. رأى محمد غنيمي هلال أن الشعر عند ابن طباطبا اقتصر على الجانب الشكلي فقط وأغفل روح الشعر، والتجربة والخيال، بل عد هذا الشعر شعرا تعليميا فقط.
3. إهماله القافية في التفريق بين الشعر والنثر.

في الأخير يمكن القول أن قيمة الكتاب تكمن في القضايا المهمة التي ناقشها والتي تمس صلب نقد الشعر وحده، انطلاقا من الحديث: مفهوم الشعر، أدواته، وبناء القصيدة، وتفاضل الأشعار ومعاييرها...